جمال.. اللقاء الأول والأخير

كان الجو مشحونا بالحديث عن "التوريث" والكثيرون يزهون بالتأييد ويتفانون فى التقرب من القادم. ووصل البعض إلى حد استخدام الاساطير ذات الصبغة الدينية لتعزيز وراثته. واذكر ان احد القيادات المسيحية من كبار الأراخنة وكان يتفانى فى بناء الكنائس والإنفاق عليها وتقارب حتى اصبح عضوا فى المكتب السياسى للحزب الوطنى حاول أن يفسر لى سر حماسه المشتعل لتوريث جمال فقال ان نبوءة وردت فى التوراه تقول انه إذا توالى حرف (م) فى اسم حاكم مصر ثلاث مرات سيكون هناك دمار وكوارث وواصل فى التفسير محمد انور السادات ثم محمد حسنى مبارك فلابد من اسم يبدأ بحرف آخر غير حرف (م) لانقاذ مصر من هذه النبوءة (نلاحظ أن محمد مرسى بعد محمد حسنى

فكان دمار وكارثة) المهم تكرر الحديث عن لقاء مع جمال ولا أنا تحمست من جانبى ولا تحدد موعد من جانبهم حتى كان يوم التقيت فيه بصديق للرئيس وقريب مقرب من السيدة سوزان ويحيط به الحالمون بصحبته ولو لدقائق لينعموا برائحة السلطة الممتعة، وانتحيت به جانبا وسألته صحيح صاحبك عايز يورثنا لابنه. هاج الصديق وأكد نافيا وقال عبارات لم ازل اذكرها هو نفسه أكد لى انه رافض وقال لى قول لقريبتك أن دى مش عزبة ابويا علشان اورثها لابني. ثم اضاف صديقى قائلا "والغريب انه قال بعدها انا خايف على الولد لأنه كده قد يستهدف من جانب من لا يريدونه. وبعدها سألنى صحفى اجنبى فيما اذكر انه ديفيد هرست "هل هناك توريث؟" فأجبت بلهجة الواثق "اعتقد أن مبارك لا يريد ذلك ولن يفعلها" ولكن بعد ايام وكان هناك احتفال، ودعيت إليه وفيما نحن نخرج صاح بى مبارك صوت عال :ازيك يا رفعت يا زئبقي" واقتربت من الرئيس لاستوضحه ويبدو اننى تجاوزت فوضعت يدى على كتف الرئيس فانطلق حبيب العادلى ليزيح يدى من على كتف الرئيس باعتبار أن هذا تباسط غير مسموح به، وابتسم مبارك قائلا للعادلى ابعد عنه، مهما حاولت مش هتفهمه ده زئبقى " ولم افهم ماذا يقصد، وبعدها التقيت بالصديق الذى ما أن رآنى حتى اسرع هامسا، علشان ما اطلعش كداب فى نظرك دلوقت الراجل غير موقفه ووافق على التوريث، وربنا يستر.. وفهمت معنى "الزئبقي".

وأعود إلى "الاستاذ جمال عايز يشوفك" فحددت موعدا لاستطلع ملامح الرئيس القادم، وما أن اقتربت من مدخل ملحق مبنى الحزب الوطنى حيث يوجد مكتب "الاستاذ جمال" حتى كانت الاستعدادات توحى بالاهتمام تبادل الهمسات عبر الاجهزة، الاسانسير منتظر رغم وقوف البعض منتظرين الاسانسير الآخر، هو دور واحد ولا يستحق الاسانسير لكن احد الواقفين فى الانتظار همس"الاستاذ جمال منتظر فوق على باب الاسانسير" ووجدته مرحبا بشدة واصطحبنى إلى مكتبه، وكنت قد اعددت له مفاجأة، فقد حاولت أن احذر القادم الجديد للرئاسة من جيوش النفاق فأعددت ورقة بها بيتى شعر كتبتهما بخط واضح.. وتذكرت وأنا اكتبهما أننى وأثناء المقابلة الأولى مع مبارك بعد توليه الرئاسة بأيام حيث استدعانا خالد محيى الدين- يحيى الجمل - وانا وفى الجلسة تطاولت (هكذا وصف الاستاذ خالد تصرفي) فقلت سيادة الرئيس خللى بالك من جيوش المنافقين، فاجابنى بضحكة قائلا "متخافش عليا أنا فاهمهم كويس، ولكنه بعد فترة اصبح يستمتع به بالنفاق، صحيح انه كان يوحى بأنه لا يحترم المنافق لكنه فى الواقع كان يستمتع وبلذة النفاق، المهم بدأ جمال حديثه بأن نقل تحيات الرئيس وقال الريس قال لى كلام كتير على حضرتك وأنا سعيد ان استمع ليك، فأخرجت من جيبى الورقة وقرأت له:

من الاحباب مختص بوجد / وآخر يدعى معه اشتراكا

اذا اشتبكت دموع مع خدود / تبين من بكى ممن تباكي

أنصت وشرحت له المقصود واعطيته الورقة وقلت له احتفظ بها وطالعها كلما احاط بك المنافقون. وبدأنا الحوار هو كان يسأل في اغلب الاحوال، لكن الاسئلة كانت ذكية وكان الادب الشديد يغلف الكلمات وبعد فترة دخل شخص من السكرتارية وناوله ورقة قرأها وانتظر حتى انهيت كلامي ثم قال فيه خبر أن زوجة د. نظيف توفت والجنازة في مسجد آل رشدان بعد صلاة الظهر. ونظر في ساعته وفهمت وقلت نقوم علشان نلحق الجنازة.

وربما أتى الأمر مصادفة أو استعجالا أو مرتبا صمم الاستاذ جمال وسط دهشة الواقفين في الطرقات وامام الاسانسير على أن يصطحبني ولما قلت أنا افضل أن انزل على السلم نزل معي ثم رافقني حتى باب سيارتي، سلم بحرارة.. وكانت الجلسة الأولي.. والاخيرة.

ولكن الأمور لم تتهادى هكذا. فعندما احتفلنا بعيد تأسيس حزبنا كان المعتاد أن يحضر مندوب (دون اعلان انه مندوب) عن الحزب الوطني. ولكن لم يحضر احد وإنما كان هناك عدد كثيف من اعضاء الشورى وفيهم قيادات في الوطني وقد أتوا مجامله لي، وحرصت أن اسألهم هل طلب احد منكم الحضور كممثل عن الحزب وكانت الاجابة بالنفي المصحوبة بالاستهجان من مسلك القيادة، ولاحظت في منتصف الاحتفال سبت ورود يتهادى وعليه بطاقة من صفوت الشريف. وعلى اية حال فقد كان هناك جلسة ختامية لمؤتمر الحزب الوطني ووجهت لي دعوة، والمثير للدهشة أنهم كانوا حريصين على حضوري وأذكر أن عددا من القيادات بالحزب الوطني سألوني انشاء

الله حتحضر الحفل الختامى وكانت اجابتى مع الجميع انشاء الله لن احضر. وبعد إلحاح الكثيرين (ولست أدرى لماذا؟) قلت ارسلوا ورودا وسنرسل ورود، ولم أكن أعرف أن ورود الكبار غالية جدا إلا عندما أتت لى فاتورة الورد.

* * *

واستكمالا للحكايات مع وعن "الاستاذ جمال".. أتى د. محمد كمال مبتسما وقال فلان سيسألك عنى فقل شهادة خير. وقال انه تقدم للزواج من بنت أحد أصهارى وأن الرجل استقبل حديثه عن وضعه فى لجنة السياسات بلا اكتراث واعتبر ان ذلك لا يعنى شيئا ولا حتى عضوية الشورى لفتت انتباه والد العروسة الذى يعمل استاذا جامعيا مرموقا لكنه سليل أسرة من رجال الأعمال الاثرياء والذين لا يعترفون بلعبة السياسة (خاصة أنهم شهود على ما كان قد اصابنى واصاب اسرتى بسبب السياسة وحتى هم اصابهم رذاذ من ذلك). وكلمنى صهرى وقلت خيرا فى الرجل ومع عقد القران جاءت من صهرى بطاقة دعوة شديدة الاناقة ومكان الفرح قصر محمد على فى شبرا. وبالتليفون سألت ابو العروسة .. ايه اللى وداكم هذا القصر الذى لم يسبق أن عقدت فيه أفراح ولا حتى افراح الأسرة المالكة. فقال اختاروه لأن جمال مبارك سيحضر وأبدى أبو العروسة عدم رضائه عن وضعه شخصيا (فى هذا الاستثناء) وفكرت طويلا خاصة وأن كل الأسرة بجميع فروعها (الغنية فقط طبعا) سوف تأتى من المنصورة ومدى ملاءمة انى احضر ولكننى فى نهاية الامر قررت عدم

الحضور واكتفيت بورود. وأذكر أن عادل حمودة أثار القضية وكيف أن "الأستاذ جمال" أمر باستخدام القصر المهيب لفرح سكرتيره. ولست أدرى كيف عرف البعض بصلة المصاهرة وربما لأن الجميع عرفوا أن اسرة من المنصورة وتوالت اسئلة الصحفيين. هل حضرت؟ من حضر؟ ما صلة القرابة؟.. وأدركت أن عدم حضورى كان الحل الصحيح.. وبعدها أكد لى والد العروسة احترامه لقرارى بعدم الحضور. والمهم أن العريس وجد نفسه فى مأزق عندما حوصر من بعض الصحفيين كيف؟ ولماذا؟ وأجاب لم يكن عقد قران وانما حفل استقبال. لكنه كان عقد قران أو هكذا كانت تقول بطاقة الدعوة.

***

وأعود لألاحظ أن صفوت الشريف كان غير مرحب بالدور الذى يلعبه (الاستاذ جمال) وأن كان يرضخ له كأمر واقع، خاصة مع تواتر الاخبار بأن عديدا من الوزراء تلقوا تعليمات هامسة بأن يعرضوا "البوسته" على جمال بدلا من الرئيس. وأن الاستثناء كان فقط وزارات الدفاع - الداخلية- الخارجية.. وما عدا ذلك فتحت إدارة جمال. وبدأ اقرار الأمر الواقع يسري. وأذكر واقعة ذات مغزى فقد أتى الأخ فرج الرواس إلى عضوية مجلس الشورى عقب انتخابات دعمه فيها فتحى سرور، ثم ومع التجديد وقف فتحى سرور ضده بضراوة، وحاول الرجل أن يستعين بعدد من شخصيات مجلس الشورى فكلمنى وأشرت عليه بعقد مؤتمر انتخابى وأن يدعو إليه وكيل المجلس المستشار عبد الرحمن فرج محسن والدكتور

خلاف عبد الجابر خلاف أمين اللجنة الاقتصادية وطلب أن احضر فى المؤتمر فقلت سأستشير زملائى فى حى السيدة واستشرتهم فقالوا لاتحضر أنت ولكن اطلب منه أن يدعو أحدنا للحديث فى المؤتمر وسوف نعلن نحن تأييدنا لترشيحه. وعقد المؤتمر ويبدو أن فرج الرواس فهم أننى تعرضت لضغوط فتحايلت وكلفت أحد زملائنا لإعلان تأييدي. وبعد المؤتمر تزايدت ضغوط فتحى سرور مع تزايد فرص نجاح الرواس بفضل نفوذه العائلى فى المدبح وانفاقه الذى بلا حدود. ومع الضغوط الأمنية التى أمر بها فتحى سرور ومجاملة كمال الشاذلى لسرور قرر الرواس تفجير الأمر علنا.. وكان جمال يحضر مؤتمرا للحزب الوطنى فى أسيوط فذهب الرواس إلى هناك بحجة أنه ذاهب لواجب عزاء. ثم دخل الاحتفال وبعد أن تحدث جمال وفتح باب الحديث طلب الرواس الكلمة.. وقال أن فتحى سرور يطارده رغم أنه ابن الحزب الوطنى ومرشحه وأن الضغوط طالبت من حضروا مؤتمره الانتخابى من اعضاء الشورى وطالبت مسئول حزب التجمع فى السيدة لأنه حمل رسالة تأييد منى له.. كنت فى مارينا وكان سرور فى جنيف ووصله الخبر وكلمنى مفزوعا.. من وصول هذه الشكوى إلى الاستاذ جمال شخصيا وسألنى هل اتصل بك أحد من الرئاسة أو من عند الاستاذ جمال وكنت مندهشا من فزع رئيس مجلس الشعب إلى هذا الحد فقلت له لم يتصل بى أحد ولا يجرؤ أحد أن يسألنى فى هذا الأمر.. ووصلت المكالمة للاستاذ جمال.

ثم كانت واقعه أخرى حيث وجه "الاستاذ جمال" الدعوة لسفراء عديد من الدول الأوربية ليتحاور معهم فى مؤتمر لقيادات الحزب الوطنى يعقد فى وزارة الاستثمار، وتلقيت مكالمة تدعونى للحوار وتبلغنى سيكون مقعدة فى الصف الأول (كأن ذلك مغريا) وسألت هل ستتاح الفرصة للحديث فقالوا للأسف لأ. فقلت للأسف لن احضر أنا لا أصبح أن أكون ديكورا. وتراكم امتعاضات متبادلة. لكن كلينا حاذر من أى تصادم.

* * *

وأذكر أن الرجل المبتسم زميل نادى الجزيرة (هل تذكرونه) تحدث فى إحدى مقابلاته الخاطفة وقال "سمعت ومش متأكد من صحة الخبر. أن المشير وعمر سليمان قابلا الرئيس معا. وقالا له : انت استاذنا ورئيسنا ونحن مدينون لك بالطاعة والولاء ولكن الأخ جمال لم يزل لم ينضج بعد، وحوله شلة فاسدة وتستغل علاقتها به لمزيد من الفساد ومن ثم فإن أمر توريثه يحتاج لمزيد من التروي، لأن ذلك قد يحدث هزة فى البلد.

وختم المبتسم روايته مبتسما وقائلا أنه مش متأكد من صحة هذه الحكاية .. ومن ثم فإننى ارويها ولست متأكدا من صحتها .. من صحتها.

وأذكر ايضا وهذا أنا متأكد منه لأن من رواه لى كان حاضرا بنفسه انه خلال القاء الريس مبارك خطاب افتتاح دورة البرلمان بمجلسيه ثم انتابته حالة تشبه الاغماء لكنها لم تكن إغماء بالمعنى

المفهوم وكان إلى جوارى محمود الشناوى والرئيس على بعد صفين أو ثلاثة ويبدو أنه أدرك أن الرئيس على وشك الانهيار فصاح به "كفاية يا ريس" مبارك اخرج منديله ومسح عرقا غزيرا وسأل فى همس مسموع "الدنيا حر ليه" ثم تدافعت كلمات مرتبكة ومتداخلة وهنا قفز شخص مدنى (من الحرس الرئاسي) من اعلى مقصورة بالقاعة ونزل ثابتا على قدميه وأخرجوا الرئيس كان يقاوم بعناد أن يبدو متهالكا لكنه خرج وخلفه د. فتحى سرور وصفوت الشريف والمشير وأغلق الباب فى وجه الآخرين. وفيما تلف الحيرة الجميع صاح شيخ الأزهر الشيخ طنطاوى "ادفعوا البلاء بالدعاء" وعلى صوته "يارب" ورددها خلفه اعضاء المجلسين، وظل الصياح الجماعى فى مشهد مثير للدهشة.. وربما للسخرية. وفجأة فتح الباب وصاح أحدهم "الدكتور حمدى السيد يتفضل" وخرج حمدى السيد لخمس دقائق ثم عاد ليهمس فى أذنى "لسه قاعد على قلبنا" وكان جمال قد نزل من المقصورة وقال بصوت آمر "استدعوا الاسعاف ليسرع بالرئيس إلى موقع الهليوكبتر فى الجزيرة": وقال لى أحد الحاضرين أن صفوت الشريف صاح موجها كلامه إلى لا أحد "بلاش لعب عيال. مش عايزين ارتباك وسط الناس ويهز البلد امام العالم والرئيس كويس.." ومرة أخرى فتح الباب "الدكتور مصطفى الفقي" وأدرك الحضور أن الفقى مطلوب لاختصار ما تبقى من الخطاب فيحضر الرئيس ويلقيه، وسمعت فى سهرة عادية حضرها الشريف قوله أنهم فى الرئاسة "طلبوا من الفقى اعداد خطاب لا

يتجاوز إلقاءه ٢٠ دقيقة لأن الرئيس تعبان وعنده برد، لكن الفقى اطال كالعادة ودخل فى عشرات المواضيع وتحدث الرئيس أكثر من ساعة ولم تزل اغلب الصفحات لم تقرأ. وشخط الشريف فى الفقى اختصر ليتحدث الرئيس خمس دقائق فقط، ودخل الرئيس ليستقبل بتصفيق حاد.. تأملت المشهد وتساءلت فى سرى هل كل هذا حب؟ أم بعضه حب وبعضه خوف على استقرار البلد، أم بعضه خوف من جمال ورجاله الذين توحشوا فى فرض نفوذهم. وسريعا انهى مبارك ما تبقى من دقائق.

لكننى اعتقد أن عبارة "بلاش لعب عيال تركت جرحا فى العلاقة بين الشريف وجمال، وأن الشريف انتشى بما ابداه من ثبات فى معالجة الموقف محاذرا فى نفس الوقت وبحرص شديد على عدم التصادم.